مفهوم وحدة الأمة الإسلامية

أ.د. محمود حمدي زقزوق
عميد كلية أصول الدين بالقاهرة

القسم الأول : مقدمات عامة :

١ ــ مفهوم الأمة الواحدة فى القرآن الكريم .
٢ ــ منشأ الاختلاف فى الأمة الواحدة .
٣ ــ الوحدة والخصائص المميزة .
٤ ــ الوحدة الكمية والوحدة النوعية .

القسم الثانى : الأبعاد المختلفة لوحدة الأمة الإسلامية :

١ ــ البعد الدينى ٢ ــ البعد الإنسانى
٣ ــ البعد الاجتماعى ٤ ــ البعد الجغرافى
٥ ــ البعد الحضارى ٦ ــ البعد المصيرى

المخاطر التى تهدد وحدة الأمة الإسلامية :

١ ــ الفرقة والتنازع ٢ ــ موالاة الأعداء

خاتمة : واقع الأمة الإسلامية وآفاق المستقبل .

بسم الله الرحمن الرحيم

ينقسم بحثنا حول « مفهوم وحدة الأمة الإسلامية من خلال القرآن والسنة » إلى قسمين نتحدث فى القسم الأول منهما عن بعض النقاط التمهيدية والمقدمات العامة التى نمهد بها للقسم الثانى الذى نتناول فيه الأبعاد المختلفة لوحدة الأمة الإسلامية من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية ثم نختم حديثنا بالإشارة إلى بعض المخاطر التى تهدد وحدة الأمة الإسلامية ونتناول فى هذا الصدد أيضاً واقع الأمة الإسلامية وآفاق المستقبل

القسم الأول : مقدمات عامة

١ — مفهوم الأمة الواحدة فى القرآن :

إذا بحثنا عن كلمة وحدة فى المعاجم فسنجد أن الوحدة (بفتح الواو) تعنى الانفراد ، تقول رأيته وحده أى منفرداً ، ووحده توحيداً جعله واحداً ، ورجل متوحد أى منفرد ، ولابن باجة الفيلسوف كتاب بعنوان تدبير المتوحد ، والتوحيد الإيمان بالله وحده ، والمسلمون موحدون لأنهم أفردوا الله بالعبادة دون غيره ، وتوحد الله إنسانا بعصمته أى عصمه ولم يكله إلى غيره(١) .

والملاحظ أن كلمة الوحدة مضافة إلى الأمة أى وحدة الأمة لم ترد فى القرآن الكريم ولكن ورد وصف الأمة بأنها واحدة ، فالتوكيز فى القرآن قد جاء إذن على مفهوم الأمة التى توصف بأنها أمة واحدة وليس على مفهوم الوحدة التى تضاف إلى الأمة . وهذا يعنى أن الأمة الواحدة هى الأصل .

(١) راجع القاموس المحيط ومختار الصحاح .

أما مسألة توحيد الأمة ووحدتها فقد كانت متأخرة فى الزمان بعد أن طرأ الاختلاف على الأمة مما استدعى القيام بجهود كبيرة لإعادتها إلى أصل نشأتها عن طريق الرسالات السماوية المتعاقبة.

فنحن نقرأ فى القرآن الكريم وصف الأمة بأنها واحدة فى موضعين:

فى سورة الأنبياء (آية ٩٢) : « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » .

وفى سورة المؤمنون (آية ٥٢): « وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » .

وباستعراض كتب التفسير نجد أن السياق الذى وردت فيه هاتان الآيتان يدل على أن المراد بالأمة الواحدة أمة الأنبياء ، فهى « أمة واحدة تدين بعقيدة واحدة وتنهج نهجا واحد أهو الاتجاه إلى الله دون سواه ، أمة واحدة فى الأرض ، ورب واحد فى السماء لا إله غيره ولا معبود إلا إياه ، أمة واحدة وفق سنة واحدة تشهد بالإرادة الواحدة فى الأرض والسماء »(١) .

ويرى بعض المفسرين أن الإشارة بالأمة الواحدة فى سورة الأنبياء تنصرف إلى الأمة المحمدية ، فهى ملتكم التى يجب أن تتمسكوا بها ولا تنحرفوا عنها .. هى ملة واحدة كما عرفتم من الأمم مع أنبيائهم ، أى ملة واحدة غير مختلفة فى الأصول والعقائد(٢) .

---

(١) فى ظلال القرآن لسيد قطب طبعة دار الشروق مجلد ٤ ص ٢٣٩٥ وما بعدها ، وكذلك ص ٢٤٦٩

(٢) راجع : التفسير الواضح للشيخ محمد محمود حجازى ج ١٧ ص ٣٤

ويقول الزمخشرى فى تفسيره « الكشاف » : إن الأمة بمعنى الملة والإشارة هنا بالأمة الواحدة فى هاتين الآيتين إلى ملة الإسلام . والمعنى : إن ملة الإسلام هى ملتكم التى يجب أن تكونوا عليها لا تنحرفون عنها يشار إليها بأنها ملة واحدة غير مختلفة(١) .

ولعل هذا التفسير يلتقى أيضاً مع تلك الدعوة التى دعا بها إبراهيم وإسماعيل ربهما وهما يرفعان القواعد من البيت الحرام : « ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك(٢) » .

وفى تفسير الفخر الرازى لآية سورة (المؤمنون) : « يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » ، رد على اعتراض قد يرد على الأذهان يقول : كيف يكون دين الأنبياء واحداً (المعبر عنه هنا بالأمة الواحدة) مع أن شرائعهم مختلفة ؟

ويقول الفخر الرازى فى رده على هذا الاعتراض : إن المراد من الدين مالا يختلفون فيه من معرفة ذات الله تعالى وصفاته . وأما الشرائع فإن الاختلاف فيها لا يسمى اختلافا فى الدين ، فكما يقال فى الحائض والطاهر من النساء إن دينهن واحد وإن افترق تكليفهما فكذا هنا ، ويدل على ذلك قوله تعالى (وأنا ربكم فاتقون) فكأنه نبه بذلك على أن دين الجميع واحد فيما يتصل بمعرفة الله تعالى واتقاء معاصيه ، فلا مدخل للشرائع وإن اختلفت فى ذلك(٣) .

---

(١) راجع : تفسير الكشاف للزمخشرى ص ١٠٥ ج ٣

(٢) سورة البقرة آية ١٢٨

(٣) التفسير الكبير للفخر الرازى — مجلد ١٢ ج ٢٣ ص ١٠٥ — دار الفكر .

ومن ذلك يتضح أن الوحدة هنا تعنى وحدة المقاصد والغايات ولا يلزم بالضرورة أن تكون وحدة الشرائع أو الوسائل . ومما يدل أيضاً على التأكيد على وحدة الدين بصرف النظر عن اختلاف الشرائع قوله تعالى فى سورة الشورى (آية ١٣) : « شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » وذلك بجانب قوله تعالى فى آية أخرى : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً »(١) .

٢ — منشأ الاختلاف فى الأمة الواحدة :

وإذا كانت هذه الآيات التى تتحدث عن وحدة الأمة فى الدين الذى جاءت به الرسل جميعاً فإن هناك أسباباً ذكرها القرآن الكريم للاختلاف فى داخل هذه الأمة الواحدة يتجاوز الاختلاف فى الشرائع ، وهناك مفاهيم أخرى للأمة تتسع أو تضيق على حسب الأحوال . فالراغب الأصفهانى مثلا يقول فى تعريفه للأمة : « الأمة كل جماعة يجمعهم أمر ما : إما دين واحد أو زمان واحد أومكان واحد سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيراً أم اختياراً »(٢) .

وقد كان الناس فى الأصل أمة واحدة على الحق ثم اختلفوا بسبب الحسد والبغى بدءاً من قتل قابيل لأخيه هابيل ، والأمر ذاته ينطبق على من بقى فى السفينة بعد الطوفان ، إذ كانوا جميعاً على الحق والدين الصحيح ثم اختلفوا بعد ذلك . ويدل على هذا قول الله تعالى : « وماكان الناس

(١) المائدة ٤٨

(٢) نقلا عن أحمد محمد شاكر فى تعليقه على مادة « أمة » فى دائرة المعارف الإسلامية .

إلا أمة واحدة فاختلفوا »(١)، وقوله تعالى: « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين »(٢) أى بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين بعد أن حدث الاختلاف كما تنص على ذلك الآية الأولى .

ولكن هذا الاختلاف بين البشر الذى نشأ بسبب الانحراف عن الدين ليس أمراً خارجاً عن المشيئة الإلهية ، وإنما هو أمر يتفق مع مشيئة الله فى خلقه . فالله سبحانه كان يستطيع لو شاء أن يجعل الناس أمة واحدة إلى قيام الساعة ، ولكنه سبحانه أراد أن يختبر خلقه ليميز الخبيث من الطيب ، وذلك مصداقا لقوله تعالى : « ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات »(٣) ، وقوله تعالى : « ولوشاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء ولتسئلن عما كنتم تعملون »(٤) .

فهو سبحانه يضل من يشاء ممن رأى فى سابق علمه أنه لو ترك ونفسه لما فعل إلا الضلال والبهتان ، ويهدى من يشاء ممن اطلع عليه فى سابق الأزل فرآه يميل إلى الخير ولو ترك وشأنه لما فعل إلا الخير(٥) .

وهناك آيات أخرى فى نفس المعنى فى سورة هود (آية ١١٨) وفى سورة الشورى (آية ٨) .

(١) يونس ١٩ (٢) البقرة ٢١٣

(٣) المائدة ٤٨ (٤) النحل ٩٣

(٥) التفسير الواضح جـ ١٤ ص ٦٥ ، انظر أيضاً جـ ١٢ ص ٦٠ ، جـ ٢٥ ص ١١

٣ — الوحدة والخصائص المميزة :

وبعد هذا التمهيد الذى طال بعض الشىء نستطيع أن نتبين من خلاله فيما يخص الأمة الإسلامية بالمعنى التاريخى أن وحدة الأمة الإسلامية لاينبغى أن يفهم منها نفى الخصائص المميزة لكل شعب من شعوب الأمة الإسلامية داخل هذه الوحدة . فالوحدة هى الإطار العام تنفى التناقض ولكنها لا تنفى الاختلاف فيما هو خارج نطاق الأصول العامة .

فوحدة الأسرة ليس معناها إذابة كل الفروق النفسية والعقلية بين أعضائها فكل ميسر لما خلق له . ووحدة المجتمع لا تعنى القضاء على اختلاف وجهات النظر فيما هو محل اجتهاد ، ولا تعنى طمس معالم ذاتية الأفراد واعتبارهم أدوات صماء أو نسخاً مكررة ، فتلك وحدة لا يمكن أن تبنى مجتمعاً متماسكا .

والشىء نفسه ينطبق على وحدة الأمة الإسلامية بصفة عامة ، إذ ليس معنى هذه الوحدة طمس الخصائص التى تتميز بها شعوب الأمة الإسلامية وجعلها بلا لون . فقد خلق الله الناس شعوبا وقبائل لتتعارف وتتآلف لا لتذوب خصائصها كلية ، وإلا لم يكن هناك داع فى الأساس لجعلهم شعوباً وقبائل .

وكمثال بسيط يعبر عن احترام الإسلام لما تتميز به كل طائفة أو قوم من خصائص مادامت لا تتناقض مع مقررات الدين ماورواه الإمام البخارى عن عائشة رضى الله عنها أنها زفت جارية يتيمة كانت فى حجرها لرجل من الأنصار ، فدخل رسول الله ولم يسمع الغناء . فقال ياعائشة ألا بعثت معها من يغنى فإن الأنصار قوم يحبون الغناء أو يحبون الغزل . فلو بعثتم معها من يقول : « أتيناكم أتيناكم فحيونا نحييكم — ولولا الذهب الأحمر . . ما حلت بواديكم — ولولا الحنطة السمراء . . ماسمنت عذاريكم »(١) .

(١) رواه البخارى وابن ماجة والحاكم فى المستدرك .

فوحدة الأمة الإسلامية لا تصادم أية خصائص يتميز بها كل شعب من شعوب الأمة الإسلامية مادامت فى الإطار المشروع ، ومادام الجميع ملتزمين بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة . ويؤكد جمال الدين الأفغانى على هذه النقطة قائلا :

« لا ألتمس بقولى هذا — فى الدعوة إلى وحدة الأمة الإسلامية — أن يكون مالك الأمر فى الجميع شخصاً واحداً ، فإن هذا ربما كان عسيراً ، ولكن أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن ووجهة وحدتهم الدين ، وكل ذى ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع فإن حياته بحياته وبقاءه ببقائه »(١) .

٤ — الوحدة الكمية والوحدة النوعية :

والإسلام عندما يتحدث عن وحدة الأمة الإسلامية ويحث عليها ويدفع المؤمنين دفعا إليها فإنه لا يركز بأية حال من الأحوال على مجرد الكثرة العددية . فالوحدة الكمية لا يمكن أن تكون هى الأساس المتين لبناء الأمة وقوتها . فإذا انبنت مثل هذه الوحدة على أساس من الكثرة العددية فقط فسيكون البناء بناء هشاً لا قيمة له ولا قوام . وهذا مايمكن أن نطلق عليه بمصطلحات العصر أنه وحدة شعارات خالية من المضمون .

وينطبق على مثل هذه الوحدة الهشة التى تعد جسداً بلا روح ماعبر عنه النبى ﷺ بغثاء السيل . فقد روى أبو داود فى سننه والإمام أحمد فى مسنده أن رسول الله ﷺ قال :

(١) د . محمد البهى : الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ص ٧٩ نقلا عن مجموعة العروة الوثقى ص ١٩٣

« يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها . فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل وليغزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن الله فى قلوبكم الوهن . فقال قائل : يارسول الله وما الوهن ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت »(١) .

وعندما نظر المسلمون فى غزوة حنين إلى كثرة عددهم وأصابهم شىء من الغرور وقالوا لن نغلب اليوم عن قلة دارت عليهم الدائرة . وفى ذلك يقول القرآن الكريم : « ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين »(٢) .

ومن أجل ذلك يركز الإسلام على الوحدة النوعية . فالنوعية المؤمنة القليلة العدد تستطيع بوحدتها وتماسكها وقوة إيمانها وثقتها بنصر الله — تستطيع أن تتغلب على الكثرة الكاثرة الخاوية من الإيمان . وفى ذلك يقول القرآن الكريم : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله »(٣) .

فبناء وحدة الأمة لابد أن يقوم على أسس راسخة حتى يكون بناء متينا شامخاً ولابد أن تكون عناصر هذا البناء قوية متينة . ومن هنا نجد النبى ﷺ يؤكد أن المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وأن « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً »(٤) .

---

(١) سنن أبى داود كتاب الملاحم ٥/ جـ ٤ ص ٤٨٣ (طبعة اسطنبول للكتب الستة مجلد ١٠) .

(٢) التوبة آية ٢٥ (٣) البقرة آية ٢٤٩

(٤) رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى .

القسم الثانى

الأبعاد المختلفة لوحدة الأمة الإسلامية

١ — البعد الدينى :

يمثل البعد الدينى أهم عناصر وحدة الأمة الإسلامية ، فالدين هو الركيزة الأساسية التى تنبنى عليها بقية العناصر ، فوحدة الأمة الإسلامية تمثل بناء متكاملا له أساس ثابت فى الأرض هو الذى يحمل البناء كله أو هى كالشجرة لها جذور ضاربة فى الأرض وبدونها لا يكون للشجرة كيان ولا حتى وجود ، ومن هذه الجذور يمتد الساق والفروع والأغصان .

ويتمثل البعد الدينى فى العقيدة الواحدة بإله واحد ونبى واحد وكتاب واحد وعبادة واحدة . فالجميع يتجهون فى صلاتهم فى مواعيد محددة إلى الله نحو قبلة واحدة أياً كانوا فى أى مكان من العالم ، ويجمع بينهم الصيام فى شهر معين ، ويجمع الحج بينهم من كل الأجناس والأقطار طائفين حول كعبة واحدة فى حرم الله الآمن تنجذب إليها أفئدتهم من كل فج عميق « ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات »(١) .

وهذا التجمع الكبير فى الحج يعد رمزا حيا لوحدة الأمة الإسلامية كلها ، فهؤلاء ممثلوها من كل مكان يجمعهم هدف واحد ويربط بين قلوبهم رباط واحد يجعل منهم جميعا إخوة متحابين متآلفين بأمر الله .

---

(١) سورة الحج آية ٢٨

ويعبر القرآن الكريم عن هذا البعد الدينى بقوله تعالى : «واعتصموا بحبل الله جميعا »(١) وهـــذه الوحدة الروحية من شأنها أن تقضى على كل ما يعكر صفو وحدة الأمة أو يعمل على تقطيع أوصالها . فما دام الرب واحدا والدين واحدا والقرآن واحدا فلا مجال للتناقض فى أمور الدين . والاعتصام بحبل الله ليس مجرد شعار يرفعه المسلمون وإنما له مقتضيات لا يتحقق بدونها، ولا يقع عنـــد الله موقع القبول إلا إذا تحققت وقام المعتصمون بتبعاتها على الوجه الذى رسمـــه الله فى كتابه طريقا لكمال الإنسانية ورقيها ، فهو يقضى بتنحية الشهوات والأهواء التى تثيرها العصبيات القبلية والجنسية والمذهبية ، ويقضى بالنظر السريع فى تنقية العقائد والعبادات وسائر المشروعات الإلهية مما يشوبها ويكدر صفوها من صور الشرك والابتداع الذى هيأ لخصوم الإسلام أن يقولوا بتعددية الإسلام، ويزعموا أن الاسلام ليس دينا واحدا وإنما هو أديان متعددة تختلف باختلاف الأقاليم والمذاهب « كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا »(٢) .

---

(١) سورة آل عمران آية ١٠٣

(٢) من توجيهات الإسلام للشيخ محمود شلتوت ص ٥١٢ مطبوعات الإدارة العامة للثقافة الإسلامية بالأزهر ١٩٥٩ . ونلفت النظر فى هذا الصدد إلى أن البعد الدينى كان العامل الحاسم فى صمود الشعب الجزائرى فى وجه المستعمر الغاشم ، كما كان البعد الدينى أيضا هو الذى جعل المجاهدين الأفغان صامدين حتى اليوم ضد المحتل الغاصب . ونعتقد أن البعد الدينى أيضا هو الذى سيكون العامل الحاسم فى انتصار الشعب الفلسطينى على المغتصبين الطغاة .

٣ — البعد الإنسانى :

ويتضح البعد الإنسانى لوحدة الأمة الإسلامية جليا فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة . فالله سبحانه وتعالى يلفت نظرنا إلى وحدة الأصل الإنسانى . فالناس جميعا قد خلقهم الله من نفس واحدة : «يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة(١) » ، والرسول ﷺ يؤكد هذا المعنى أيضا فى قوله :

« يأيها الناس ، ألا إن ربكم واحد وأباكم واحد ، ألا لا فضل لعربى على أعجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأحمر على أسود ، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى »(٢) .

والإسلام لا يفصل هـذا البعد الإنسانى عن البعد الدينى الذى أشرنا إليه كما كانت تفعل — ولا تزال — بعض الأيديولوجيات والفلسفات فى القديم والحديث التى تصل بالإنسان إلى حد التأليه ، وتجعله صاحب السلطان الأوحد فى هذا الكون . ويبين لنا القرآن الكريم أن الإنسان الذى ينكر أصله أو يجحد خالقه هو إنسان يعمل ضد طبيعته وفطرته التى فطره الله عليها ، فالله سبحانه قد أخذ عليه ميثاقا لا يجوز له أن يتجاهله أو يغفل عنه لأنه مركوز فى أصل فطرته . وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

---

(١) سورة النساء آية ١

(٢) مسند الإمام أحمد جـ ٥ ص ٤١١ — المكتب الإسلامى للطباعة والنشر فى بيروت ، وقد رواه الترمذى أيضا فى سننه جـ ٤ ص ٣٨٩ (مجلد ١٤ من طبعة إسطنبول للمكتب السنة)

« وإذ أخـــذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا : بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين »(١) .

ومن بين الفلاسفة من فلاسفة الغرب الذين أكدوا هـذا المعنى كان الفيلسوف الفرنسى ديكارت الذى قال : « والحق أنه لا ينبغى أن نعجب من أن الله حين خلقنى غرس فى هذه الفكرة (أى فكرة وجود الله) لكى تكون علامة للصانع مطبوعة على صنعته »(٢) .

وهذا الارتباط الوثيق بين كل من البعد الدينى والبعد الإنسانى فى وحدة الأمة الإسلامية له دلالة هامة ، إذ يعنى أن هذه الأمة التى أراد الله لها أن تكون خير أمة أخرجت للناس من شأنها أن تكون عنصر أمان واستقرار فى هذا العالم ، فهى أمة ترتبط بخالقها بعلاقة العبودية له سبحانه وترتبط بغيرها من بنى البشر بعلاقة الإنسانية التى لا تنفى عبوديتها لخالق الكون كله .

وهذه الصلة الوثيقة بالله إذا استقامت فإنها كفيلة بتصحيح مسار الأمة الإسلامية فى هذا الوجود وبذلك تتحقق خيريتها — إنها أمة تسع الإنسان أينما كان وأنى كان ، وتشمل برعايتها وأمنها كل من يعيش على أرضها ، أمة يرى خليفتها عمر بن الخطاب رضى الله عنه شيخا يهوديا يتكفف الناس فى شوارع المدينة فيفرض له من بيت مال المسلمين ما يكفيه ذل السؤال .. أمة يفرض عليها دينها حقا للجار غير المسلم على جاره المسلم ، أمة يؤكد كتابها الكريم المعنى الإنسانى الشامل الذى يؤكد كرامة الإنسان وحرمته فى قوله تعالى :

---

(١) سورة الأعراف آية ١٧٢

(٢) التأملات لديكارت . ترجمة د. عثمان أمين ص١٥٥ القاهرة ١٩٥١

« من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا »(١) .

٣ — البعد الاجتماعى :

إذا كانت الأمة الإسلامية ترتبط فيما بينها بروابط العقيدة والإنسانية فإن محصلة هذين البعدين هى الأخوة التى هى أقوى من أخوة النسب . ومن هنا كان قول القرآن الكريم « إنما المؤمنون إخوة »(٢) .

وعندما أراد النبى ﷺ أن يؤسس قواعـــد المجتمع الإسلامى فى المدينة بعد الهجرة آخى بين أصحابه من المهاجرين والأنصار ، فتآلفت قلوبهم بفضل الله . وقد امتن الله على المؤمنين بهذا التآلف فقال: « فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا »(٣) .

وهذه الأخوة لها حقها فهى تتضمن بعدا عاطفيا يتمثل فى المشاركة الوجدانية . فكل فرد من أفراد الأمة الإسلامية يشعر بآلام وآمال أمته لأنه جزء منها يحس بإحساسها ويسعد لسعادتها ويتألم لألمها .

ومن هنا كان قول النبى ﷺ : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى »(٤) .

ولكن مجرد المشاركة الوجدانية — مع أهميتها — لا تكفى . ولابد

---

(١) سورة المائدة آية ٣٢ (٢) سورة الحجرات آية ١٠

(٣) سورة آل عمران آية ١٠٣

(٤) رواه مسلم والإمام أحمد (راجع فيض القدير للمناوى جـ ٥ ص ٥١٤ — دار المعرفة بيروت) .

أن يترجم هذا الشعور الداخلى إلى عمل فعال يكون من شأنه النهوض بالأمة وبأفرادها . ومن هنا كان مبدأ التكافل فى الإسلام بمثابة ترجمة عملية لذلك الشعور الباطنى لدى المسلم. وقد جعل الإسلام هذا المبدأ عبادة مفروضة يتعبد بها المسلم ويتقرب بها إلى ربه وهى فريضة الزكاة .

فالزكاة إذن ليست مجرد تبرع يجود به المسلم أو لا يجود وإنما هى حق المال وهو حق إلزامى واجب الأداء من طيبات ما كسبنا ، وهو حق لا يجـــوز التهاون فيه بأى حال من الأحوال . فالله سبحانه قد استخلف الإنسان فى المال الذى هو مال الله وأمره بالإنفاق منه . وفى ذلك يقول القرآن الكريم : « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه »(١) .

ومن هنا نفهم لماذا حارب أبو بكر رضى الله عنه مانعى الزكاة لأنها ضرورة من ضرورات المجتمع الإسلامى فضلا عن أنها أحد أركان الإسلام الأساسية . فالأمة الإسلامية أمة متكافلة ولا تتم وحدتها بدون هذا التكافل ، ولا يتم إيمان المسلم بدونه . وفى ذلك يقول الرسول ﷺ : « ما آمن بى من بات شبعانا وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم »(٢) .

وهذا أمر لا ينطبق فقط على محيط التجمعات السكنية الصغيرة أو القرى أو المدن أو محيط كل دولة إسلامية على حدة ، وإنما هى مبادىء مقررة تلتزم بها الأمة الإسلامية كلها حتى لا يكون هناك فقير أو محتاج على مستوى الأمة الإسلامية . فهموم هذه الأمة ينبغى أن تشغل بال كل مسلم وكل حاكم فى العالم الإسلامى.

---

(١) سورة الحديد آية ٧

(٢) رواه الطـــبرانى والبزار وإسناده حسن (راجع : الترغيب والترهيب للإمام الحافظ المنذرى جـ٣ صـ٣٥٨) .

وقد آن الأوان ليخرج المسلمون من دائرة المشاركة الوجدانية السلبية إلى المشاركة الإيجابية الفعالة المؤثرة وذلك بوضع الخطط المفصلة لإقامة بنيان التكافل بين أبناء الأمة الإسلامية . وقد آن الأوان للأمم الإسلامية أن تنصهر فى بوتقة الوحدة الحقيقة للأمة الإسلامية بتحقيق مبدأ التكافل والخروج من الفرديات المنعزلة والقوميات المنفصلة إلى محيط الجماعة الكبرى التى أرادها الله أن تكون خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله وتقيم التعاون فيما بينها على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان .

٤ — البعد الجغرافى :

لقد جعل الله الأمة الإسلامية من وضعها الجغرافى الذى تتميز به فى هذا العالم وحدة طبيعية جامعة تمتد فى رقعة مترامية متلاحمة الأجزاء . وقد صور العالم الجليل الراحل الدكتور محمد عبد الله دراز هذه الوحدة الجغرافية تصويراً طريفاً معبراً نقتبسه هنـا لأهميته فى إعطاء صورة واضحة المعالم لهذا البعد الجغرافى. يقول رحمه الله :

« إنها صورة جمل ضخم قد برك على الأرض بمؤخرته ولكنه أخذ يهم بالنهوض فنصب ساقيه الأماميتين ورفع رأسه ومد عنقه ، وقد سحب إلى الأمام من مشفره بحبل وتدلى من عنقه حبل ثان ، واجتذب إلى الوراء من منكبه بحبل ثالث كأنه المقود فى يد الراكب .

أما مبرك الجمل فهو الجزء الأعظم من القارة الإفريقية ، أعنى كتلتها العظمى المحصورة بين المحيط والبحر الأبيض والبحر الأحمر ، وأما ساقاه الأماميتان فهما الصومال وأوغنده ، وأما صدره فهو جزيرة العرب وما يليها من الشمال ، وأما عنقه ورأسه الممتدان فى قلب القارة الآسيوية فهى

بلاد إيران وأفغانستان وباكستان وما فوقهن ، وأما الحبلان الممدودان من شقره ومن عنقه فهما سلسلتان من الأقاليم الآسيوية تمتد إحداهما إلى أقصى الشرق على المحيط الهادى أمام الجزر اليابانية ، وتمتد الأخرى إلى الجنوب حتى تعبر القارة الآسيوية عند ملتقى المحيطين الهادى والهندى ، وهناك تؤلف مجموعة الجزر الأندونيسية . وأما المقود الذى يجذبه من منكبه إلى الوراء فهو سلسلة من الأقاليم الأوربية تبتدىء من الأقطار التركية وتسير فى اتجاه شمالى غربى حتى تصل إلى بحر البلطيق » .

وهذه الوحدة الجغرافية التى تتضح لنا من خلال هذه الصورة الملموسة من شأنها أن تمحو بين أقطار العالم الإسلامى تلك الحواجز الإقليمية المصطنعة فى شئون الاقتصاد والإنتاج . ومن شأن هذه الوحدة الجغرافية أيضا أن تيسر توزيع ثروتها المادية بينها توزيعا ينشر فيها الرخاء ويحقق لها الاكتفاء الذاتى والاستغناء عما هو سواها(١) .

ولا ينبغى أن يفهم من هذا التصوير للبعد الجغرافى محدودية الإسلام وانحصاره فى تلك البقاع ، فالغرض كان فقط إعطاء صورة تقريبية لتلاحم مناطق العالم الإسلامى المعاصر . ولسنا فى حاجة إلى أن نؤكد على عالمية الرسالة الإسلامية ومسئولية المسلمين فى توصيلها إلى كل مكان فى العالم بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن . فهذا أمر يعد من البديهيات الإسلامية .

(١) فى الدين والأخلاق والقومية للدكتور محمد عبد الله دراز ص ١٤٨ وما بعدها القاهرة ١٩٦٧ م .

٥ — البعد الحضارى :

الإسلام ليس دين طقوس تعبدية جامدة . إنه دين للحياة بكل أبعادها ، والأمة الإسلامية أمة أراد الله لها أن تكون صاحبة رسالة دينية وحضارية فى هذا العالم ، ومن هنا كان وصفها بأنها خير أمة أخرجت للناس .

وقد رسم القرآن الكريم للإنسان الإطار العام فى كل أموره الدينية والدنيوية ، واستخلف الله الإنسان فى الأرض وكلفه بعمارتها وصنع الحضارة فيها ، ووعد المؤمنين العاملين بالتمكين لهم فى الأرض وكتب لهم العزة والنصر . وتحقيق ذلك كله أمر منوط بالإنسان وبتأييد من الله .

وقد أدرك المسلمون الأوائل ذلك كله وعملوا على تحقيقه ، وقد تحقق لهم بالفعل ما أرادوا وما أراده الله منهم ، وبذلك أقاموا صرحا شامخا لحضارة كانت من أطول الحضارات عمراً فى التاريخ . وقد اشترك علماء الأمة الإسلامية من كل جنس ولون فى إقامة هذا الصرح الحضارى بدافع من الإسلام الذى رفع من شأن العلم والعلماء واعتبر مداد العلماء مساويا لدماء الشهداء ، وجعل العلماء أخشى الناس لله .

وسارت جهود علماء المسلمين فى مجالات العلوم الدينية والدنيوية جنبا إلى جنب فى تكامل رائع ، فقد أدركوا أن الحضارة تعنى تقدما ماديا وروحيا وأخلاقيا ، وبذلك قدموا للإنسانية خدمة كبرى فى الوقت الذى كان فيه العالم غير الإسلامى لا يزال يعيش فى جهالة جهلاء . وترك لنا الأسلاف تراثا ضخما يعد أغنى تراث فى العالم كله يعبر عن وحدة جهود علماء الأمة الإسلامية بصورة رائعة ، ويشترك المسلمون فى كل مكان فى العالم الإسلامى فى الاعتزاز بهذا التراث .

وقد آن الأوان للأمة الإسلامية أن تتوحد جهودها مرة أخرى فى

سبيل النهوض بالأمة والارتقاء بها حضاريا بما يؤكد شخصيتها المتميزة ويحافظ على ذاتيتها مسترشدين فى ذلك بتعاليم الإسلام الشاملة وبالجوانب الايجابية المشرقة فى تراثنا .

فلا يليق بالأمة الإسلامية أن تظل فى عالمنا المعاصر قابعة فى مقاعد المتفرجين الذين لا يشاركون فى صنع الحضارة، ويكتفون بدور المستهلك لما تنتجه الحضارة التى يصنعها غيرنا فى الوقت الذى لا تعرف البشرية فيه دينا آخر غير الاسلام يشتمل على كل المقومات والأسس التى تحقق للبشرية أفضل المستويات الحضارية ماديا وروحيا وأخلاقيا .

والرسالة الدينية الحضارية المنوطة بالأمة الإسلامية لا يمكن تأديتها والقيام بحقها إلا إذا توحدت جهود الأمة الإسلامية دينيا وفكريا وحضاريا، وواجبها يفرض عليها فى هذا الصدد أن تقدم للعالم هـــذه الرسالة الدينية الحضارية فى صورة أنموذج متحقق فى عالم الواقع. فليس بالأقوال تؤدى الرسالات الكبرى ولكن بترجمة الأقوال إلى برامج عمل .

ومن هنا كان اللوم والمقت للمؤمنين الذين يقولون مالا يفعلون : « يأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون ، كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون »(١)

(١) سورة الصف آية ٢ ، ٣

٦ — البعد المصيرى :

وإذا كانت الأمة الإسلامية ترتبط فيما بينها برباط دينى واحد وتجمعها وحدة جغرافية طبيعية ولها رسالة نورانية حضارية فى هذا الوجود فإن ذلك يعنى غايات واحدة وأهدافا مشتركة ويعنى فى النهاية مصيرا واحدا .

ومن أجل حماية هذا المصير الواحد وصونا للمبادىء السامية والمثل العليا التى تقوم بها ومن أجلها الأمة الإسلامية فلابد من إعـــداد القوة اللازمة لدرء الأخطار التى تحيط بها سواء كانت هذه الأخطار قائمة بالفعل أو محتملة الوقوع ، أى سواء كانت منظورة أو غير منظورة ، فالقوة فى كلا الحالين ضرورية .

وفى هذا الصدد يقول القرآن الكريم : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم »(١)

والهدف الذى من أجله يدعو القرآن الكريم إلى هذا الاستعداد الحربى بكل ما أوتينا من قوة لا يرمى إلى التخريب والتدمير أو الاستعباد أو سلب الآخرين أموالهم وأوطانهم وأمنهم ، وإنما يرمى إلى دفع شر الأعداء وتخليص المستضعفين من أيدى الظالمين المعتدين وإفساح الطريق أمام دعوة الخير الذى يريده الله لعباده .

وقيام هذه القوة يعد من أقوى وسائل السلم الذى أمر الله به . ومن هنا كان التأكيد فى الآية على قوله تعالى : « ترهبون به عدو الله وعدوكم » فهى قوة تحمى السلم والأمان والاستقرار .

ومثل هذه القوة لا تتأتى إلا بوحدة الأمة الإسلامية. فهذه الوحدة هى

(١) سورة الأنفال آية ٦٠

السد المنيع والحصن الحصين فى وجه كل الأطماع التى تستهدف إضعاف الأمة الإسلامية وإثارة الفتن والخصومات بين أبنائها .

وعلى الأمة الإسلامية صاحبة المصير المشترك أن تعيد النظر فى قائمة الأولويات للقضايا والهموم التى تحيط بها فى عالمنا المعاصر ، فتشغل نفسها لا بالقضايا الهامشية بل بالقضايا المصيرية وعلى رأسها قضية التخلف التى تمثل الهم الأكبر للأمة الإسلامية اليوم . والتخلف الذى أعنيه يشمل المجالات الروحية والمادية والأخلاقية والعلمية والحضارية بصفة عامة . وتلك قضية مصيرية لا يجوز التهاون فيها أو التفريط فى معالجتها بما تستحقه من اهتمام وعناية .

المخاطر التى تهدد وحدة الأمة الإسلامية :

بعد أن ألقينا نظرة سريعة على أهم الأبعاد التى تشتمل عليها وحدة الأمة الإسلامية لابد لنا من التنبيه إلى المخاطر التى تهدد صرح هذه الوحدة . وقد حذر الإسلام من الوقوع فى شراكها . وتتلخص هذه المخاطر فى عنصرين أساسيين يمكن أن ترد إليهما جميع الأسباب الفرعية الأخرى التى تستهدف إضعاف الأمة الإسلامية وكسر شوكتها .

وأول هذه العناصر يتمثل فى الفرقة والتنازع والصراعات المدمرة التى تعد مدخلا خطيراً لانهيار وحدة الأمة الإسلامية ، سواء كان هذا التنازع والتفرق فى أمور الدين أو السياسة والملك أو بسبب الفوارق الطبقية الصارخة أو بسبب الصراعات القبلية أو العرقية التى تحيى ما كان قائماً فى الجاهلية . وقد جاء التحذير الإلهى من ذلك حاسماً قاطعاً فى عبارة قصيرة تبدأ بالحث على التمسك بالوحدة وتحذر فى الوقت نفسه من التفرق ، وذلك فى قوله تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا »(١) . وفى آية أخرى يأتى

(١) سورة آل عمران آية ١٠٣ .

التنبيه إلى نتيجة التفرق والتنازع ، وذلك فى قوله تعالى : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم »(١) . وهكذا تؤدى الفرقة والتنازع والتناحر إلى الفشل الذى تكون نتيجته النهائية هى ذهاب قوة المسلمين وضياع عزتهم ومنعتهم . وبذلك يكونون لقمة سائغة فى يد أعدائهم تداعى عليهم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها .

أما العنصر الآخر الذى يحذر الإسلام منه فيتمثل فى موالاة الأعداء . وفى ذلك يقول القرآن الكريم : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم ، قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون(٢) » .

وختام الآية أمر فى غاية الأهمية لمن يتأمل . فالله قد وضح لنا الطريق وكشف لنا عن مخاطره وعثراته ، وعلينا أن نتدبر أمرنا بعقولنا التى منحها الله لنا لنميز بها الخبيث من الطيب « قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون » .

وفى آية أخرى يقول القرآن الكريم : « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة »(٣) .

ولا يخفى على أحد أن هناك كثيراً من الممالك الإسلامية فى القديم والحديث قد ضاعت بسبب موالاة الأعداء والركون إليهم والوثوق بهم والاستعانة بهم على حرب المسلمين بعضهم بعضا ، ولم يكن ذلك السلوك إلا كالمستجير من الرمضاء بالنار .

(١) سورة الأنفال آية ٤٦ .
(٢) سورة آل عمران آية ١١٨ .
(٣) سورة الممتحنة آية ١ .

خاتمة : واقع الأمة الإسلامية وآفاق المستقبل .

إن الواقع الذى تعيشه الأمة الإسلامية اليوم يعد واقعاً مؤلماً كما يجب أن نعترف بذلك جميعاً ، وهو واقع يسير فى اتجاه مضاد لكل مثاليات وحدة الأمة الإسلامية، فالنزاعات القائمة اليوم بين أبناء الأمة الإسلامية أكثر منها فى أى مكان آخر فى العالم . ومؤسسات العمل المشترك فى العالم الإسلامى ليست أكثر من واجهة تحمل شعارات طنانة لا تعنى شيئا ، وأمور المسلمين المصيرية يقررها غيرهم . وأقرب مثل على ذلك كان الاتفاق الذى تم بشأن أفغانستان منذ بضعة أشهر فقد تم توقيع هذا الاتفاق لا من جانب أصحاب الشأن وأصحاب القضية وهم المسلمون ولكن من جانب الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية .

وهذا الواقع المؤلم يدفع إلى طرح تساؤلات عديدة :

هل يجهل أبناء الأمة الإسلامية فى عالم اليوم الأبعاد الحقيقية لوحدة الأمة الإسلامية ومن هنا يعملون فى اتجاه معاكس لها أم أنهم يدركون تماما كل ما تعنيه هذه المقومات بالنسبة لحاضر الأمة الإسلامية ومستقبلها ومع ذلك فهم لا يصنعون شيئا ؟

إنه إذا كانت الأولى فتلك مصيبة وإن كانت الثانية فإن المصيبة أعظم.

ما لنا نرى هذا البون الشاسع بين النموذج والواقع ؟

وما لنا نرى الأمة الإسلامية قد تفرقت السبل بأبنائها ؟

أين الخلل ؟ هل هو فى المشروع الحضارى الإسلامى أم هو فى الواقع المحير والمشحون بالتناقضات الحادة والذى يعيشه أبناء الأمة الإسلامية ؟

أم أن الخلل فى الفهم السقيم والمعوج لقيم وتعاليم الإسلام ؟

ما سبب هذا التبلد الذى أصاب الأمة الإسلامية فى عالمنا المعاصر ؟

أين ذلك كله من تلك الأمة التى وصفها القرآن الكريم بأنها خير أمة أخرجت للناس ؟

لسنا نريد الدخول فى تفاصيل ذلك كله الآن . لأن موضوعنا ينصب فقط على توضيح مفهوم وحدة الأمة الإسلامية . ولكننا نستطيع أن نقول باختصار — كما قال الراحل مالك بن نبى أيضاً — : « إن التخلف الذى تعانى منه الأمة الإسلامية اليوم يعد عقوبة مستحقة من الإسلام على المسلمين لتخليهم عنه لا لتمسكهم به كما يظن بعض الجاهلين » .

ومن ناحية أخرى فإن صلاح حال الأمة الإسلامية لن يتم إلا بإرادة أبنائها ولن ينزل علينا من السماء . فإذا صحت إرادة الأمة وصدقت العزائم وخلصت النيات فلا شك أن الله سبحانه وتعالى سيكون مع هذه الأمة بالتأييد والنصر . وهذا قانون قرآنى ثابت تعبر عنه الآية الكريمة : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » (سورة الرعد ١١) .

وعلى الرغم من كل السحب الكثيفة السوداء التى تغطى سماء الأمة الإسلامية فنحن لسنا يائسين فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون.

ولا زلنا نأمل فى تيقظ وعى الأمة وصحوة ضميرها وتجديد شباب عقيدتها ونقاء فكرها حتى تأخذ مكانها اللائق بها بين الأمم فى عصر التكتلات الدولية .

فلا يليق بكرامة هذه الأمة أن تعتمد فى غذائها بنسبة سبعين فى المائة على غيرها من دول العالم ، ومن المعلوم أن من لا يملك غذاءه لا يملك قراره.

لا زلنا نأمل أن تعود هذه الأمة صاحبة قرارها ومقررة مصيرها ، وأن تسهم إسهاماً حقيقياً فى تقرير مصير هذا العالم .

لا زلنا نأمل فى غد مشرق الأمة الإسلامية ، تتوحد فيه جهودها وتتفق على الأقل على قضاياها المصيرية . ونرجو أن تتحول هذه الآمال عن قريب إلى برامج عمل لمصلحة هذه الأمة حتى تحقق ما أراده الله لها أن تكون خير أمة أخرجت للناس قولا وفعلا .

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

أ . د/ محمود حمدى زقزوق